مجلّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية المجلد الثاني العدد االثاني (ديسمبر 2018 م)
قسم العلوم الإسلامية / جامعة غرداية
E-ISSN: 2588-1728 / P-ISSN: 2602-7518
http://eddakhira.univ-ghardaia.dz

الخلاف في مسائل إعجاز القرآن بين المفسرين المعتزلة والأشاعرة

-دراسة مقارنة بين الزمخشري(ت 538هـ) وابن عطية(ت 542 هـ)_

د. عبد الرحيم العوامي
باحث – الرباط – المملكة المغربية
aouami.dhh@gmail.com

ملخص

تعد مسألة إعجاز القرآن إحدى أهم المسائل التي استأثرت باهتمام علماء التفسير، وخصوصا المفسرين المعتزلة والأشاعرة، ويسعى هذا البحث إلى تقريب هذا الاهتمام عند هاتين الفرقتين من خلال الموازنة بين رأيي كل من الزمخشري وابن عطية في تناولهما لقضية الإعجاز، والوجوه التي وقع بها، وموقفهما من الصرفة، وتناولهما لآيات التحدي، وآرائهما في القدر الذي وقع به الإعجاز، وذلك رغبة في استكشاف الخصائص العامة للمعالجة التفسيرية لهذه الظاهرة القرآنية، والوقوف على الخلاصات المضمونية والمنهجية المعينة في دراسة قضاياها.

كلمات مفتاحية: القرآن – الإعجاز– التفسير – الظاهرة.

Abstract

Inimitability in the Holy Quran, has been always considered as one of the most important cases that scholars of exegesis “Tafssir” took care of, especially “Al Mutazila” and “Al Ashira”. This research aims to bring around this definition for both doctrines, by counterbalancing “Al Zamakhshari” and “Ibn Atia” ‘s opinions when the defined Inimitability and the way it came in the Holy Quran, and some other specifics. This research is also dedicated for discovering the general preferences for analyzing this Holy Quran phenomena, and abstract the prefix approach to study its cases

تمهيد:

تعد قضية إعجاز القرآن إحدى أهم القضايا الخلافية التي نالت الحظ الأوفر من مناقشات علماء الملة بشتى مذاهبهم الكلامية وتخصصاتهم العلمية، لارتباطها الوثيق بكلام الله تعالى الذي أثير حوله جدل ونزاع بين المتكلمين؛ وخاصة بين المعتزلة القائلين بخلق القرآن والنافين صفة الكلام عن الله عز وجل، وبين الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة الذين تصدوا لهذه المقالة[1]، ونظرا لكونها ركنا رئيسا من أركان العقيدة الإسلامية، إذ لا إثبات لصدق النبوة إلا بعد إثبات إعجاز القرآن.

ولم تكن العلوم الإسلامية بمنأى عن تأثير الخلاف الكلامي، فكما تأثر بسببه علما الفقه والأصول تأثر أيضا علم التفسير، فنشأت تفاسير كلامية تدافع عن المقررات العقدية والمذهبية من خلال تفسير الآيات المتشابهة وتأويلها، ما أسهم في بيان بلاغة القرآن وإعجازه والكشف عن درره ومكنوناته ؛ وهذا ما يشير إليه العلامة الفاضل بن عاشور بقوله: "وانفتح بذلك باب كان منغلقا لمتعاطي التفسير، وهو بيان الوجه البلاغي المعجز في كل تركيب قرآني"[2].

ويروم هذا البحث الموازنة[3] بين آراء عالمين من علماء التفسير ورواده؛ أحدهما مشرقي يمثل التيار الاعتزالي؛ وهو العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

1_ ولذلك سمي هذا العلم علم الكلام، قال ابن خلّكان: " إنها كانت لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله عز وجل أ مخلوق هو أم غير مخلوق؟ فتكلم الناس فيه. فسمّى هذا النوع من العلم كلاما واختصّ به" ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،** ط دار الطباعة المصرية 1275 هـ (1/ 687).

2- وقد نقل الفاضل بن عاشور قول عبد القاهر الجرجاني عن هذا الباب:" وهو باب إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة ورأيت له فأثرا في الدين عظيما، وفائدة جسيمة وودته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل..." انظر : ابن عاشور، **التفسير ورجاله،** منشورات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة 1970م، ص 50.

3- و قد وازن بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري فريق من العلماء قديما وحديثا نظرا للمعاصرة التي كانت بين الرجلين والتشابه الذي يربط بين كتابيهما في التفسير، ومن العلماء الأقدمين الذين

الخوارزمي، المتوفى سنة 538538هـ [1] من خلال تفسيره " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" ، والثاني مغربي أشعري سني؛ وهو الإمام القاضي أبو محمد عبد الحق ابن عطية المحاربي الغرناطي الأندلسي، المتوفى سنة54254 542555555هـ[2] من خلال تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز".

وتكمن أهمية هذا البحث في الكشف عن خصائص تناول التيار التفسيري لقضية إعجاز القرآن التي طغى فيها الخلاف الكلامي بين أصحاب المذاهب العقدية، نظرا لكون المفسر يتأثر حتما بظروف بيئته، ومصادر تكوينه والمذهب الذي يدين به، ولا يخفى في هذا الباب أن الزمخشري ألف تفسيره في ضوء العقيدة الاعتزالية، وانتصر لها انتصارا كبيرا[3]. كما أن ابن عطية إمام من أئمة أهل السنة الأشاعرة قد أطال النفس

اتجهوا للمقارنة بين التفسيرين : الإمام أبو حيان في كتابه البحر المحيط فقد كان الرجلان في نظره من أجل من صنف علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير، وهما فارسا علم التفسير وممارساه تحريره والتحبير، ونشراه نشرا وطار لهما به ذكرا وكانا متعاصرين في الحياة متقاربين في المهات. انظر: أبو حيان، **البحر المحيط**، دراسة وتحقيق وتعليق أحمد عبد الوجود وعلي محمد يعوض، ط.1، (بيروت: دار الكتب العلمية، سنة 1413 هـ /1993 م) (113/1) ، كما قارن بينهما الشيخ الفاضل بن عاشور مسوغا ذلك بكونهما متعاصرين، ولم يكن الفرق بينهما في الوفاة سوى ثلاث سنوات فقط سبق بها الزمخشري ابن عطية، علاوة على أن الموازنة بينهما توقف على الفرق بين ثلاث جهات: أولاها من حيث إن ابن عطية مغربي والزمخشري مشرقي، وثانيتها من حيث إن ابن عطية سني والزمخشري معتزلي، وثالثتها من حيث إن ابن عطية مالكي والزمخشري حنفي. ولكل من هذه الجهات أثرها في ميزة من الميزات، التي اختلف بها كل من التفسيرين عن الآخر بالإضافة إلى فارق السن، وإلى فارق العروبة والعجمة انظر: الفاضل بن عاشور، انظر: **التفسير ورجاله**، ص 50.

1- انظر ترجمة الزمخشري في: الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (151/20) **معجم الأدباء** (19/ 126)،**وانباء الرواة** (3/ 265) **طبقات المعتزلة**،ص20.ابن خلكان، **وفيات الأعيان** (168/5)

2_ انظر ترجمته في: الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (586/19) **شجرة النور الزكية**(1 / 129) ، السيوطي، **طبقات المفسرين، ص** 41.

3-ذلك أن من الأهداف الأساسية التي دفعت الزمخشري إلى وضع كشافه نصرة مذهبه الاعتزالي، وتأييد أصول المعتزلة، وترويج آرائهم وأفكارهم، وقد كان المعتزلة في عصره هم الذين طلبوا إليه أن يؤلف لهم هذا التفسير، وقد نوه الزمخشري في مقدمة تفسيره بهم، وأشاد بفضلهم، ووصفهم

في الدفاع عن وجهة نظر أهل السنة الأشاعرة بما أوتيه من بلاغة في البيان وقوة في الحجاج والدفاع، وعمد إلى تفسير آيات الصفات بنزعة أشعرية ظاهرة كما هو الشأن في حديثه عن صفة كلام الله عز وجل[1]. ويتغيى البحث الوقوف عند أثر الخلاف الكلامي في بحث مسائل قضية إعجاز القرآن وفق منهج تحليلي مقارن وذلك من خلال المباحث الآتية:

- ❖ المبحث الأول: تناول قضية إعجاز القرآن بين الزمخشري وابن عطية.
- ❖ المبحث الثاني: أوجه إعجاز القرآن عند الزمخشري وابن عطية.
- ❖ المبحث الثالث: موقف الزمخشري وابن عطية من القول بالصرفة.
- ❖ المبحث الرابع: آيات التحدي والتدرج فيها عند الزمخشري وابن عطية.
- ❖ المبحث الخامس: القدر المعجز من القرآن عند الزمخشري وابن عطية.
- ❖ خاتمة: وفيها خلاصات واستنتاجات مضمونية ومنهجية.

وليس الغرض استقصاء آرائهما بخصوص قضية الإعجاز، بقدر ما يهمنا استكشاف الخصائص العامة للمعالجة التفسيرية لهذه الظاهرة القرآنية ،ومن ثمة استنباط الفوائد المضمونية والمنهجية التي يمكن من خلالها تقليص الخلاف في مسائل الإعجاز أو السعي إلى تدبيره.

بأنهم من أفاضل الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين العربية والأصول الدينية. انظر: عبد الوهاب فايد، **منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم**، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط.1393ه 1973م،ص 327.

1 _ ذهب ابن عطية في تفسير قوله تعالى : إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون إلى القول بالكلام النفسي القائم بذات الله عز وجل حيث قال: : كُنْ أمر للشيء المخترع عند تعلق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده، وإنما يؤمر تأكيدا للقدرة وإشارة بها، وهذا أمر دون حروف ولا أصوات بل من كلامه القائم بذاته لا رب سواه" ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط.1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422 ه) (464/4).

المبحث الأول: تناول قضية إعجاز القرآن بين الزمخشري وابن عطية:

قبل الخوض في بيان كيفية تناول مبحث الإعجاز من لدن كل من الزمخشري وابن عطية، لا بد من الإشارة إلى اعتمادهما أساسا على أصول اللغة والنحو، حيث إن المنهج اللغوي والنحوي يكتسي أهمية بالغة في التفسيرين معا، كما أن جنوحهما إلى توظيف القواعد اللغوية والأصول النحوية انعكس بشكل كبير على تناولهما لمسائل الإعجاز والبلاغة؛ فالناظر في مبحث الإعجاز عند الزمخشري في كشافه يجد أنه الجانب الأبرز، بل هو الجانب البارز في تفاسير المعتزلة الذين سبقوه. بيد أن الزمخشري لم يخص إعجاز القرآن بكتاب مستقل أو فصل منفرد ، وإنما كان عمله عملا تطبيقيا يقيم من خلاله الأدلة على إعجاز القرآن بشواهد من آياته حتى تبرز وجوه إعجازه لكل الناظرين، كما أنه لم يتحدث حديثا صريحا عن إعجاز القرآن كالقائلين مثلا: "وجه إعجاز القرآن نظمه وعلو معانيه" أو القائلين بـ" وجه إعجاز القرآن في الأخبار الغيبية التي جاءت فيه" ونحو هذا، ولكنه فسر القرآن تفسيرا أبرز من خلال النظم القرآني الذي يصور للقارئ وجوه الإعجاز بما يضمه من الأسرار[1].

وخلافا لذلك فإن ابن عطية قد أورد في مقدمة تفسيره فصولا تحدث فيها عن القرآن وجمعه وضروب إعجازه، وقد أولى مسألة الإعجاز اهتماما ملحوظا، فخصص له فصلا في مقدمة تفسيره سماه:" **نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن"،** وأفاض الحديث فيه من خلال تفسيره لآيات الاعتقاد بالرد على المعتزلة ونقد مقولاتهم ودفع شبههم، وتخليص الحقائق وتحريرها كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه.

1-وقد كان منهج الزمخشري في تفسيره "الكشاف" قائما على استعراض آي القرآن كله من أول سورة منه إلى آخرها، ولكن مع التطلع إلى إعجاز النظم القرآني وأسراره في المفردات والتراكيب على السواء، انظر :2019 عبد الكريم الخطيب، **الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها،** ط.1 ، دار الفكر العربي سنة 1973م. ص ص298، 301.

المبحث الثاني: أوجه إعجاز القرآن[1] عند من الزمخشري وابن عطية:

اتفق العلماء على أن القرآن معجزة إلهية لا نظير لها، غير أنهم اختلفوا في الوجه الذي وقع به الإعجاز على أقوال متعددة مختلفة، قال السيوطي رحمه الله:" لما ثبت كون القرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز، وقد خاض الناس في ذلك كثيرا فبين محسن ومسيء"[2]، وقد أوصل العلماء وجوه إعجاز القرآن إلى ثمانين وجهًا، ومنهم من زاد على ذلك، قال السيوطي أيضا: " وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين، والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه"[3]، فوجوه الإعجاز كثيرة لا تكاد تضبط، لهذا وقع الخلاف فيها، وتعددت الآراء حولها.

ويهمنا هنا أن نبرز الرأي الذي ذهب إليه الزمخشري وابن عطية في تفسيريهما بخصوص أوجه إعجاز القرآن، وقد سبقت الإشارة إلى أن الزمخشري لم يتحدث في وجوه الإعجاز حديثا صريحا، لأنه لم يخصص لتناول هذا الموضوع فصلا مستقلا، وإنما اكتفى بعبارات وإشارات تكشف عن رأيه في الجهة التي كان منها إعجاز القرآن؛ من ذلك المقدمة العامة التي صدر بها كشافه، حيث أشار فيها إلى وقوع الإعجاز في القرآن مبينا قيام الحجة على ذلك بتحدي الله عز وجل مشركي قريش بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. قال -رحمه الله- :" الحمد لله الذي أنزل القرآن **كلاما مؤلفاً منظما**.... مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية **معجزاً باقياً دون كل معجز** على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان **أفحم به من طولب بمعارضته من العرب** العرباء ، وأبكم به من **تحدّى به** من مصاقع الخطباء ، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم

1_ المقصود بأوجه الإعجاز :النواحي الّتي وقع بها تعجيز القرآن الكريم للخلق؛ أهي بلفظه وفصاحة كلامه؟ أم بما تضمنته هذه الألفاظ من المعاني الفاضلة والإشارات الموحية؟ أم بإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلية أم بتشريعه أم بغير ذلك من الوجوه.

2_ السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م) (7/4).

3- السيوطي، **القرآن معترك الاقران في إعجاز القرآن** ،ط.1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1408 هـ - 1988 م) ص3.

ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ..."[1]، ومنها قوله في بيان أهمية علم المعاني والبيان: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما **علم المعاني وعلم البيان** وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح **معجزة رسول اللَّه** بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات... "[2].

والباحث عن أوجه إعجاز القرآن عند الزمخشري يلفيها على وجهين:

❖ الوجه الأول: إعجاز القرآن كامن في حسن نظمه:

ويستشف ذلك من الكثير من نصوصه التطبيقية كقوله: " **النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدّي**، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر "[3]، وكقوله في تفسير قوله تعالى: **﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [النمل: 88،89،90]. "فانظر إلى **بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه**، ومكانة إضهاده، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر مّا أعجز القوى وأخرس الشقاشق "[4].

❖ الوجه الثاني: الإعجاز يكون بصدق الإخبار عن الغيبيات:

يرى الزمخشري أن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة[5]، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾. [هود:14]. "أي أنزل ملتبسا بما لا يعلمه إلا الله من

1- الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه** (بيروت، دار الكتاب العربي ، سنة 1407 هـ) (1/1).

2- نفسه (1/2).

3- نفسه (3/63).

4- نفسه (3/388)

5- نفسه (4/341).

نظم معجز للخلق وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه[1]. ويؤكد الزمخشري الرأي مخاطبا محاوره: " فإن قلت من أين لك أنه **إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة،** قلت لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه إذ خفاء مقله فيما عليه مبنى العادة محال، لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة وآية" [2].كما يومئ الزمخشري إلى الآي التي أخبرت بالغيب فيشير فيها إلى أنها تضمنت وجها من وجوه من الأعجاز، المتمثل في الغيوب المسرودة[3].

ويلخص الزمخشري هذا الوجهين بقوله في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾. [يونس:39] أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب"[4].

والباحث في النظم عند الزمخشري يجده قد استمده من عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، وجعله مرجعا أساسيا في الكشف عن سر الإعجاز في القرآن الكريم. ويذهب مصطفى الصاوي في دراسته عن الزمخشري إلى أنه كان أول من طبق رأي عبد القاهر الجرجاني في إعجاز القرآن تطبيقا عمليا وعلى نطاق واسع يشمل سور القرآن جميعها[5].وقد ساق عبد الكريم الخطيب نماذج من تفسيره دالة على مواقع الروعة والإعجاز فيما ينكشف للناظر في كتاب الله من دلالات ووجوه الإعجاز[6].

أما ابن عطية فقد أورد أقوال العلماء السابقين بخصوص وجوه الإعجاز كالتي تُرجع الإعجاز إلى صفة كلام الله القديم، أو سرده للغيوب أو إلى الصرفة، قال رحمه

1- نفسه(2/383).

2- نفسه (1/102).

3 - الصاوي، **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه** ، ط.2 (مصر، دار المعارف، سنة 1968) ص 218.

4- الزمخشري، **الكشاف**(2/348).

5- الصاوي ، **منهج الزمخشري**، ص 219.

6- عبد الكريم الخطيب، **الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها**، ص 309.

الله :" قال قوم: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كلفت في ذلك بما لا يطاق"[1]، والباحث في جذور هذا الرأي يجده رأي الأشاعرة في المسألة؛ حيث رأوا أن كلام الله قديم، وهو صفة من صفات الذات وهو الذي وقع به التحدي وعنه عجزت العرب. كما نقل رأيا آخر في الإعجاز مفاده أن التحدي إنما وقع بما في كتاب الله من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة[2]. وقد ذهب إلى هذا الرأي كما مضى معنا الزمخشري في كشافه.

ثم رد ابن عطية هذين الرأيين معللا ذلك بأنه إنما يرى الإعجاز فيهما من تقررت الشريعة ونبوة محمد في نفسه: "وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما من تقررت الشريعة ونبوة محمد في نفسه، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يتحدى فيما يبين له بينه وبين نفسه عجزه عنه، وكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا تحديت إلى ذلك وعجزت فيه، علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به"[3]. ليخلص بعد ذلك إلى الرأي الراجح عنده في هذه المسألة، وهو الذي عليه الجمهور، حيث يقول:" والقول الذي عليه الجمهور والحذاق أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه"[4].

فقد عمد ابن عطية إلى هدم الوجوه الأخرى التي لا تبين عن حقيقة الإعجاز القرآني في نظره، ودافع بقوة عن كون وجه إعجاز القرآن يتمثل في البيان في الأسلوب والفصاحة في النظم والبلاغة في أداء المعنى، وهو ما عليه المحققون من أهل النظر. وهذا القول منه يلخص ما انتهت إليه نظرية النظم مع عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في الأسرار والدلائل[5]، ويقدم ابن عطية على هذا الاختيار دليلا عقديا يرجع إلى

1_ ابن عطية ، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، (1/52).

2- ابن عطية، **المحرر الوجيز**، (1/52).

3-نفسه

4- نفسه.

5- **أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.**

كون الله عز وجل قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة في القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره"[1] .

وبالموازاة مع القول بنظم القرآن في أحسن التآليف لا يتوانى ابن عطية في التنبيه على أن البشر موسومون بالجهل والنسيان والذهول والعجز والقصور، ومن ثم لا يمكن لبشر أن يكون محيطا بما حفل به القرآن ، يؤكد هذا الأمر إيراده لجملة من الأدلة المحسوسة المؤيدة لمذهبه قائلا::" يظهر لك قصور البشر في أن الفصيح فيهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً ثم تُعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبذل فيها وينقّح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام "[2].

وقد عمد ابن عطية إلى تنزيل هذا الرأي وهو يعرض لآيات التحدي ويكرر ما ركز عليه في مقدمة تفسيره، فيرى أن جمهور العلماء يصرفون التحدي إلى الإتيان بمثله في النظم والرصف وفصاحة المعاني يعرفونها، ولا يعجزهم التأليف الذي خص به القرآن، وبه وقع الإعجاز على قول حذاق أهل النظر، كما عمل على نقل الآراء المخالفة وتضعيف رأي من يقول إن الإعجاز وقع بما اشتمل عليه القرآن من الغيوب مع ترجيحه لوجه الإعجاز المتمثل في النظم والرصف، قال ابن عطية:" وفيه عندي نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلته في الغيوب ردا على قولهم افتراه، وما وقع التحدي في الآيتين هذه وآية العشر السور إلا النظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما ألزموا قط إتيانا بغيب، فالبشر مقصر عن معرفة الغيب"[3].

1-**المحرر الوجيز،** (52/1)

2- نفسه.

3- نفسه، (120/3)

فهذه النصوص تؤكد ترجيحه للنظم وجها لإعجاز القرآن، وفي ذلك مجاراة للجرجاني المقعد لهذه النظرية ومن نحا نحوه من البلاغيين.

المبحث الثالث: موقف الزمخشري وابن عطية من الصرفة[1]:

لئن كان الزمخشري ينحو في آرائه مذهب المعتزلة، ولئن كان كشافه مبنيا على مذهبهم في نفي الصفات وكثير من القضايا الكلامية حتى عد بمثابة المصدر التي تُنهل منه آراء المعتزلة العقدية في تفسير الآيات القرآنية ، فإنه كان في مسألة إعجاز القرآن حر الرأي بعيدا عن التعصب والهوى؛ حيث لم يشايع أصحابه في القول بالصرفة، وأن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن، ولكن الله صرفهم عن ذلك.

فإذا كان المعتزلة يرون أن الله صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن وسلب عقولهم عن ذلك، قال النظام(توفي 224هـ) :الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر علي العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيه"[2] وتابعه في ذلك الجاحظ (توفي255هـ)وحاول أن يؤسس لهذا القول من خلال دعمه ببعض الأدلة التي تجعل له المعقولية والمنطقية. فإن الزمخشري لم يأخذ بقولهم في مسألة الإعجاز، بل رأى أنه معجز في ذاته من حيث هو كلام منظوم، قد علا ببلاغته كل كلام يقوله البشر[3].

لذلك فإننا لا نكاد نقف للزمخشري على قول يقول فيه بأن القرآن إنما كان معجزا من جهة كون الله عز وجل صرف الناس عن الإتيان بمثله، وهو قول مشهور في المسألة. ولم يخالف فيه من المعتزلة إلا القليل، ومنهم القاضي عبد الجبار المعتزلي،

1- الصرفة هي أن الله صرف الهمم عن الإتيان بمثل القرآن أو معارضته، قال الخطابي في رسالته: " وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة ، أي صرفه الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدورا عليها غير معجوز عنها..." بيان إعجاز القرآن، مطبوعة ضمن ثلاث سائل في إعجاز القرآن، ص 22، وانظر أيضا صادق الرافعي ، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص 101.

2- الصاوي، **منهج الزمخشري في التفسير للصاوي**، ص205.

3- عبد الكريم الخطيب، **الإعجاز في دراسات السابقين** ، ص298.

الذي يرى أن إعجاز القرآن هو في النظم البديع في المعاني الكريمة التي ضم بعضها إلى بعض[1].

ولعل السبب في ذلك راجع إلى أنه كان متأثرا كثيرا بعبد القاهر الجرجاني الذي يستشهد به في ثنايا تفسيره؛ وهو القائل بإعجاز القرآن من جهة نظمه، وبآراء القاضي عبد الجبار المعتزلي الذي يوافقه في مخالفة المعتزلة في القول بالصرفة.

وإذا كان المعتزلة يرون أن الله صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن وسلب عقولهم عن ذلك، وأن العرب لم تعجزهم القدرة البيانية وإنما أعجزهم الله عز وجل بأن أمسك عقولهم عن الإتيان بمثل القرآن، فإن أهل السنة قد تصدوا لهذا القول، ومنهم ابن عطية المحاربي إذ يرد على المعتقدين بالصرفة عندما عدد وجوه إعجاز القرآن وحددها في حسن نظمه وصحة معانيه وفصاحة ألفاظه مشيرا إلى مسألة الإحاطة وأنها مختصة به سبحانه والبشر معهم الجهل والذهول والنسيان، ثم قال: "فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال إن العرب كان في قدرتهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه"[2].

وللتدليل على فساد هذا القول يورد ابن عطية دليلا آخر وهو يفسر آية التحدي من سورة يونس، فيقول: "والله قد أحاط بكل شيء علما، فإذا قدر الله اللفظ في القرآن علم بالإحاطة اللفظة التي هي أليق بها في جميع كلام العرب ،ونحن نجد العربي ينقح القصيدة وهي الحوليات يبدل فيها ويقدم ويؤخر، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه، فيزيد في التنقيح، **ومذهب أهل الصرفة مكسور بهذا الدليل** فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحي إليه الله تعالى"[3].

1- نفسه، ص 298.

2- **المحرر الوجيز** (52/1).

3- نفسه، (360/3).

المبحث الرابع: آيات التحدي والتدرج فيها عند الزمخشري وابن عطية

تحدى الله المشركين بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه فعجزوا عن ذلك وزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم اختلقه من عنده؛ وقد اختلف العلماء في ترتيب نزول آيات التحدي، وكان ذلك سببا في اختلافهم في كيفية تدرج القرآن بالتحدي أهو الترقي من الأسهل إلى الأصعب أم بالتدني من الصعب إلى الأسهل؟

ويرى الزمخشري في هذا الصدد أن ترتيب آي التحدي تم بالتدني من الأصعب إلى الأسهل؛ وذلك على الشكل الآتي:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ **فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ** مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[هود: 13،12]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [يونس: 38،37].
- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ** وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [البقرة: 23].

فالتحدي بالقرآن وقع تدريجيا بعشر سور فلما عجز المشركون عن الإتيان بها تحداهم بسورة واحدة فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. يقول الزمخشري مستشهدا على ذلك بدليل حسي:" تحداهم أوّلا بعشر سو، ثم بسورة واحدة ، كما يقول **المخابر في الخط لصاحبه**: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد مِثْلِهِ بمعنى أمثاله ، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له مُفْتَرَيات صفة لعشر سور"[1].

أما ابن عطية فذهب أثناء تفسيره سورة هود إلى أن التحدي بسورة واحدة وقع قبل التحدي بعشر سور؛ حيث يقول :" ووقع التحدي في هذه الآية { بعشر } لأنه قيدها بالافتراء ، فوسع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام ، إذ قد أعجزهم في

1- الزمخشري، **الكشاف** (383/2).

غير هذه الآية { بسورة من مثله } دون تقييد فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الحجة ، ونظمه ووعده ووعيده... وعجزوا في هذه الآية بل قيل لهم عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه فهذه غاية التوسعة."[1]

ويحكي قول المخالفين ومنهم الزمخشري، ومن نحا نحوه حيث يقول: "وقال بعض الناس : هذه مقدمة في النزول على تلك، ولا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشراً ؛ والتكليفان سواء ، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة وآية سورة يونس في تكليف سورة متركبة على قولهم : { افتراه } وكذلك آية البقرة وإنما ريبهم بأن القرآن مفترى"[2] ويرده بقوله : "وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة ، ووقوفها على النظم مرة"[3] .

فهو يرى أن القرآن قد تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله في المضمون والأسلوب فلما عجزوا وسع عليهم بأن يأتوا بعشر سور قيدها بالافتراء والمماثلة إنما تكون في النظم وحده.

المبحث الخامس: القدر المعجز[4] من القرآن عند الزمخشري وابن عطية:

لقد أدى بحث العلماء في التدرج مع التحدي بالقرآن من حيث الكم إلى البحث في مقدار المعجز من القرآن، واختلفوا في ذلك، والجمهور على أنه مقدار أقصر سورة منه وهي سورة الكوثر، ولم نقف عند الزمخشري على قول يحدد فيه القدر المعجز من القرآن[5]، وغالب الظن أنه يتابع الجمهور في المسألة لأنه لم يقل بأن ما يعجز أقل من السورة كالآية أو الآيتين. بل نلفيه يشير إلى أنه لم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض

1 - نفسه (155/3).

2_ نفسه (155/3)

3_ نفسه.

4_ المراد بالقدر المعجز هو :القدر من القرآن الّذي يقع به التحدي، وتطلب إليه المعارضة؛ هل هو جميع القرآن؟ أم سورة طويلة منه؟ أم كلّ جزء تبينت به التراكيب وخصائص الكلام أم غير ذلك؟

5- وقد تتبعت تفسيره لآيات التحدي، فلم اظفر بكلام صريح له في ذلك.

من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وهذا يستفاد منه على الراجح أن أقل قدر معجز من القرآن عنده هو أقصر سورة[1].

أما ابن عطية فيذهب في تحديد القدر المعجز من القرآن إلى أنه ما جمع الجهتين اطراد النظم، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل[2]. فهو يرى أن القدر المعجز ما عبر عنه معنى تام ولو كانت ألفاظه قليلة، فهو لا يتقيد برأي الجمهور في المسألة وإنما العبرة بتحصيل المعاني ولو بأقل الألفاظ.

وحاصل الأمر في المسألة أن مقدار العجز عنده إن صح أن له مقدار هو مقدار ما يؤدي فكرة كاملة ، فربما نقص عن مقدار سورة الكوثر .كقوله تعالى :(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) وربما زاد عنها. فأما قوله تعالى: ﴿مدهامتان﴾ [الرحمن : 64] وقوله: ﴿ ثم نظر﴾ [المدثر : 21] فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه[3].

خاتمة : أهم الخلاصات المضمونية والمنهجية

لقد انتهى البحث في الموازنة بين الزمخشري وابن عطية في مقاربتهما لمسائل إعجاز القرآن إلى جملة من الخلاصات والاستنتاجات على مستوى المضمون والمنهج، من أهمها:

<u>مضمونيا:</u>

- بعد الموازنة بين ابن عطية والزمخشري في تناولهما لمسائل الإعجاز يتضح أن العمل الذي قاما به في هذا الزمن المبكر يعد سبقا و تجاوبا مع روح القرن الذي عاشا فيه، والذي بدأت فيه الدراسات البلاغية تأخذ مكانها في دراسة علم التفسير.

1- الزمخشري، **الكشاف** (1/1).

2- نفسه (360/3)

3- نفسه.

- يتفق كل من الزمخشري وابن عطية في عدم إفرادهما الإعجاز بالتأليف، حيث كان عمل الزمخشري عملا تطبيقيا يقيم من خلاله الأدلة على إعجاز القرآن من خلال شواهده، باستثناء بعض الإشارات القليلة التي يفصح عنها في معرض تفسيره ، بينما قام ابن عطية بالتنظير لمسألة إعجاز القرآن في فصول من مقدمة محرره. وهذا يعطينا سمة أساسية مازت التيار التفسيري في معالجته لهذه القضية حيث لم يكن يسترعيه إفراد مبحث الإعجاز بالتأليف بقدر ما كان يهمه الكشف عنه تطبيقيا وعمليا.
- يختلف كل من الزمخشري وابن عطية في الوجوه التي يقع بها إعجاز القرآن، فالزمخشري لا يقدم قولا صريحا في وجوه إعجاز القرآن، إلا أنه يشير في أثناء تفسيره للآيات تطبيقيا إلى وجهين من وجوه إعجازه، وهما: إعجازه من جهة حسن نظمه ، ومن جهة إخباره عن المغيبات. بينما ينتقد ابن عطية قول من قال إن وجه إعجازه مقتصر على إخباره عن المغيبات ويعتبر أن الوجه الذي يقع به الإعجاز إنما هو نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه؛ وهو بهذا الرأي يجمع وجوه من سبقه من العلماء؛ فليس النظم هو وجه الإعجاز عنده كما يرى الزمخشري، وليست صحة المعاني وتوالي فصاحة الألفاظ وحدها هي وجه الإعجاز كما يرى عبد القاهر الجرجاني وإنما هذه الأمور كلها مجتمعة.
- إن قول ابن عطية المقتصر على النظم والرصف والفصاحة لا يمكن مجاراته، لأن فيه تضييقا لمجال الإعجاز وفيه مصادمة لعموم دعوة القرآن لأن اشتمال القرآن على الوجوه الإعجازية الأخرى المتعددة كالإنباء بالغيوب والأسرار العلمية تحد لمن لا يفقه البيان العربي، كما أن حصر ابن عطية للإعجاز البياني في النظم والرصف والفصاحة تفريط في الوجوه البيانية الأخرى كالتصوير والإيقاع والخلو من التعارض.
- من أسباب الاختلاف في وجوه الإعجاز في القرآن الكريم أنه لم ينص نصا صريحا على هذه الوجوه مما فتح الباب أمام اجتهاد العلماء والمفسرين قصد استنباط هذه الوجوه.

- يتفق الزمخشري وابن عطية في نفيهما القول بالصرفة، والزمخشري على الرغم من كونه معتزليا لم يقل بالصرفة التي قال بها أصحابه، ومن هنا يمكن أن نستنج أن نفي القول بالصرفة من سمات التيار التفسيري.
- يختلف كل من الزمخشري وابن عطية في ترتيب آيات التحدي والتدرج فيها أهو بالتدني من الأصعب إلى الأسهل أم بالترقي من الأسهل إلى الأصعب؟ فيرى الزمخشري أن التحدي وقع بعشر سور ثم لما عجز المشركون عن الإتيان بمثلها تحداهم بسورة مقدما الدليل الحسي على ذلك، بينما يرى ابن عطية خلاف ذلك منبها على أن التحدي وقع أولا بسورة ثم بعشر سور توسعة عليهم. ويبدو أن رأي الزمخشري أقرب إلى العقل والمنطق والحس.
- يختلف كل من ابن عطية والزمخشري في القدر المعجز من القرآن حيث تبين لنا أن الزمخشري مشايع لقول الجمهور في أن أقل قدر يقع به الإعجاز هو السورة الواحدة، بينما يذهب ابن عطية إلى أن القدر المعجز من القرآن يحصل باطراد النظم، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل، ولا يهم طول الآيات وإنما مقدار الفكرة الكاملة .
- لتفسير ابن عطية أثر في جانب التفسير البياني فهو على رأس مفسري المغاربة الذين عكفوا على إبراز الإعجاز القرآني من خلال تفسير الآيات القرآنية وهو اتجاه ملحوظ في تفسيره وإن لم يكن المقصد الأساس من تأليف المحرر الوجيز.

منهجيا:

- دراسة قضية الخلاف في الإعجاز عند المفسرين تكشف عن تفرد المفسرين بجملة من الخصائص التي مازت دراستهم لهذه القضية، مما يستفاد منه منهجيا أن دراسة هذه القضية تختلف باختلاف المجالات المقاربة لها.
- دراسة قضية الإعجاز عند المفسرين كشفت عن الأمانة العلمية التي يلزم الباحث الاتصاف بها، وقد استنتجنا هذا من نقل ابن عطية لأقوال المخالفين له في وجوه الإعجاز في القرآن بدقة وامانة.

- دراسة قضية الإعجاز عند المفسرين كشفت عن فائدة إجرائية ومهارتية؛ وهي مدى أهمية قبول رأي المخالف في المسألة وكيفية التعامل معه، ومناقشة رأيه بالأدلة والحجج دون تشنيع أو تجريح أو تسفيه.
- دراسة قضية الإعجاز عند المفسرين كشفت منهجيا عن كيفية إدارة الخلاف وعن آليات المفسرين الجدلية وطرقهم في الاستدلال والمناظرة كما هو صنيع الزمخشري (فإن قلت ... قلت).

المصادر والمراجع:

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر **(681هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،** ط دار الطباعة المصرية 1275 هـ.

- ابن عاشور، الفاضل، **التفسير ورجاله**، منشورات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة 1970م

- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،** تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط.1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422 هـ)

- أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلسي (745هـ)، **البحر المحيط**، دراسة وتحقيق وتعليق أحمد عبد الوجود وعلي محمد يعوض، ط.1، (بيروت: دار الكتب العلمية ، سنة 1413 هـ / 1993 م).

- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب (المتوفى: 388هـ)**بيان إعجاز القرآن،** مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام **ار المعارف بمصر، الطبعة:3، 1976م**

- الخطيب، عبد الكريم، **الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها،**ط.1 ، دار الفكر العربي سنة 1973م.

- الرافعي ، صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، (بيروت، دار الكتاب العربي، 2005م).

- الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر (538هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، (بيروت، دار الكتاب العربي ، سنة 1407 هـ).**

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (911هـ)،

- **معترك الاقران في إعجاز القرآن** ،ط.1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1408 هـ - 1988 م).

- **الإتقان في علوم القرآن،** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م).

- الصاوي الجويني، مصطفى ، **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه،** ط.2 (مصر، دار المعارف، سنة 1968).

- فايد، عبد الوهاب، **منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم،** القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط.1393هـ 1973م.